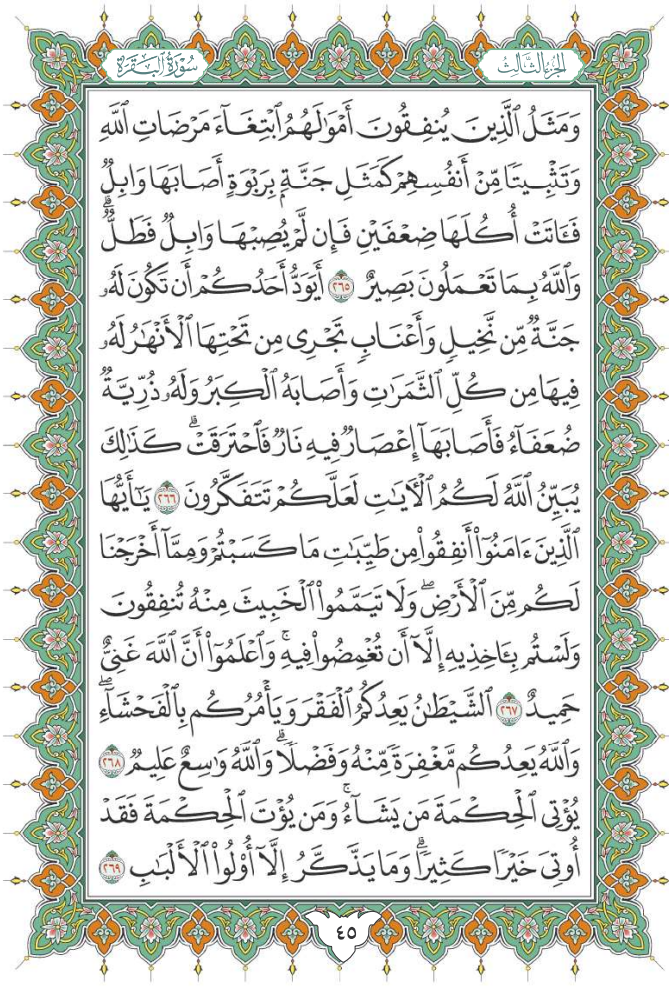

﴿٢٦٥﴾ وحال الذين ينفقون أموالهم طلبًا لمرضاة الله وتثبيتًا لأنفسهم على الإيمان، كحال صاحب بستان بأرض خصبة مرتفعة يفيده كثير الماء وقليله، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين، وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنّه يكفي لإثماره، وذلك لجودة الأرض وطيبها، فهو مثمر في الحالتين، فالمؤمنون المخلصون لا تبور أعمالهم، والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

﴿٢٦٦﴾ أيحبّ أحدكم أن يكون له بستان من نخيل وأعناب تجري خلالها الأنهار، وقد أثمر له البستان من كلّ الثّمرات التي يريدها، وأصابه ضعف الكبر وله ذريّة ضعاف لا يقدرون على الكسب ولا يستطيع هو لكبره شيئًا، وجفَّ بستانه في هذه الحال العاجزة، بسبب ريح شديدة فيها نار فأحرقته، وصاحبه وذريّته أحوج ما يكونون إليه، وكذلك شأن من ينفق ويتصدّق ثمّ يعقّب النّفقة والصّدقة بالمنّ والأذى والرّياء، فيبطل بذلك ثواب نفقته، ولا يستطيع أن يتصدّق من بعد ذلك بطيب نفسه، ويبيّن الله لكم في مثل هذا البيان الآيات لتتفكّروا فيها وتعملوا بها.

﴿٢٦٧﴾ يا أيّها المؤمنون أنفقوا من جيّد ما تحصّلونه بعملكم، وممّا يتيسّر لكم إخراجه من الأرض من زروع ومعادن وغيرها، ولا تتعمّدوا الإنفاق من رديء المال وخبيثه أنّكم لن تقبلوا هذا الخبيث لو قُدِّمَ إليكم إلا على إغماض وتساهل، صارفين النّظر عمّا فيه من خبث ورداءة. واعلموا أنّ الله غنيّ عن صدقاتكم، مستحقّ للحمد بما أرشدكم إليه من خير وصلاح.

﴿٢٦٨﴾ الشيطان يخوفكم من الفقر ويثبطكم عن كل عمل صالح لتنصرفوا عن الإنفاق في وجوه الخير ويغريكم بالمعاصي، والله واسع المغفرة قادر على إغنائكم، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

﴿٢٦٩﴾ يعطي صفة الحكمة من إصابة الحق في القول والعمل من يشاء من عباده، ومن أُعْطِيَ ذلك فقد نال خيرًا كثيرًا لان به انتظام أمر الدنيا والآخرة، وما ينتفع بالعظة والاعتبار بأعمال القرآن إلا ذوو العقول السليمة التي تدرك الحقائق من غير طغيان الأهواء الفاسدة.

الآيتان ٢٦٥- ٢٦٦

الإنفاق لمرضاة الله والإنفاق لغير وجه الله

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ .

المعنى العام

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ ومثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تصديقًا ويقينًا من أنفسهم بثواب الله، وبالوصول إلى رضوانه إن بذلوا أموالهم في طلب رضى الله، مثل نفقتهم في النّموّ والارتفاع، وهم متحقّقون ومتثبّتون بأنّ الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان بمكان مرتفع، فإنّ شجره يكون أحسن منظرًا وأزكى ثمرًا، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الغزير، ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمارها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثليّ ما كانت تثمر في عادتها، أي حملت في سنة ما يحمل غيرها في سنتين، بسبب هذا المطر الذي نزل بها، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ وهو الرّذاذ، أي مطر قليل يكفيها لطيب تربتها وارتفاع مكانها، فأقلّ شيء يكفيها. وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا، بل يتقبّله ويكثره وينمّيه، كلّ عمل بحسبه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه، يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: «قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لا نَعْلَمُ»، فَقَالَ ابْنُ عبّاس: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: «يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلا تَحْقِرْ نَفْسَكَ»، قَالَ ابْنُ عبّاس: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: «أَيُّ عَمَلٍ؟» قَالَ ابْنُ عبّاس: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: «لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثم بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»[1] ثمّ سأل تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ هل يحبّ أحدكم أن يملك بستانًا ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي وهما الغالبان فيه لكثرة منافعهما، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ من تحت تلك الأشجار ﴿الْأَنْهَارُ﴾ إذ من كمال البستان أن يشتمل على الماء البارد والظلّ الممدود، ﴿لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وله في ذلك البستان من جميع الثّمرات زائدة على النّخيل والأعناب، وقد أمضى شبابه وصحّته في زراعتها والاهتمام بها، حتّى تنفق عليه وعلى عياله اذا كبر سنّه، ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ ثمّ لمّا تقدّم في العمر، وضعف عن القيام بتلك الجنّة واعادة زراعتها اذا أصابها مكروه، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ لا يستطيعون القيام بأنفسهم

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبيد بن عمير، حديث رقم: ٤٥٣٨، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾.

لصغر سنّهم، ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ أي ريح شديد فيه نار ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ تلك الجنّة، فلا تسأل عن حسرة صاحب هذا البستان، لخوفه من ضياع نفسه وعياله. فهو لم يعد لديه القوّة كي يغرس مثله، وليس لنسله من خير يعودون به عليه. وهذا مثال لمن يُكثر من أعمال البرّ، كالصّلاة والصّيام والصّدقة والحجّ والجهاد وغير ذلك، ثمّ يعجب به، ويفتخر ويمنّ بصدقته أو يؤذي، فتحبط تلك الأعمال وتذهب، فيتحسّر عليها يوم القيامة، وهو أحوج ما يكون إليها. أو يعمل بالطّاعة في أيام عمره، فإذا قرب الموت عمل بالمعاصي حتّى ختم له بها فحبطت تلك الأعمال، لهذا كان رسول الله ﷺ، يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّي وَانْقِطَاعِ عُمُرِي»[1] ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فتعتبرون، وتفهمون الأمثال والمعاني فتنزلونها على المراد منها، وتخلصون في أعمالكم، وتخافون من سوء عاقبتكم.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيتين:

١. استحسان ضرب الأمثال تقريبًا للمعاني إلى الأذهان لينتفع بها.

٢. هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق: لمن أنفق في سبيل الله، ولمن أنفق ماله في الباطل؛ فهؤلاء يحصل لهم الشّرف والخلف، وهؤلاء لا يحصل لهم في الحال إلا الردّ، وفي المآل إلا التّلف. وهؤلاء ظلَّ سعيهم مشكورًا، وهؤلاء يدعون ثبورًا ويَصْلَوْنَ سعيرًا. هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم، وهؤلاء حَبِطَتْ أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسّوء آمالهم ويضاعف عليهم وَبالهم.

٣. يقال: مَثَلُ هؤلاء كالذي أنبت زرعًا فزكا أصله ونما فصله، وعلا فَرْعُه وكثر نَفْعُه. ومَثَلُ هؤلاء كالذي خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت- على كبره- حيلته، وتواترت من كلّ وجهٍ وفي كلّ وقت محنته... هل يستويان مثلًا؟ هل يتقاربان شَبَهًا؟

٤. ما أشبه هذا بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». أو قال: «الْعُشْبَ»"[2].

٥. وجوب التفكّر في آيات الله، لا سيّما تلك التي تحمل بيان العقائد والأحكام والآداب والأخلاق.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، عن عائشة، حديث رقم: ١٩٨٧، كتاب: الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح والذكر، باب: وأما حديث رافع بن خديج، الحديث إسناده حسن.

(٢) رواه أبو داود في سننه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٤٩٠٣، كتاب: الأدب، باب: في الحسد، الحديث حسن لغيره.

من أسماء الله الحسنى: البصير

وَرَدَ هذا الاسم أكثر من ٥٢ مرّة في القرآن الكريم، بأكثر من ٥٢ آية:

- البصير،هو الذي يشاهد ويرى حتّى لا يعزب عنه ما تحت الثّرى، وإبصاره أيضًا منزّه عن أن يكون بحدقة وأجفان، أي أنّ الله سبحانه وتعالى يرى من غير انعكاس ضوء أو ما شابه.
- فالبصر صفة من صفاته وليس بجسم كعين أو حدقة، فنحن مثلًا نبصر بعين والعين جسم وهي جزء منّا، والله سبحانه وتعالى ليس بجسم ولا يوصف بجزء فهو واحد أحد ليس كمثله شيء.
- وبصره سبحانه مقدّسٌ ومنزّه عن أن يرجع إلى انطباع الصّور والألوان كما ينطبع في حدقة الإنسان، إذ إنّ رؤيتنا للشّيء عبارة عن انعكاس الضّوء فنراه، أمّا سبحانه فمنزّه عن ذلك، فهو سبحانه ليس في جهة ولا في مكان، وإنّما يرى بغير حدقة ولا أجفان ولا وصف ولا كيفيّة ولا شيء ممّا يتّصف به المخلوق.
- فالله تعالى يرى بلا كيف لأنّ الكيف من صفات المخلوقات، فهو سبحانه وتعالى الذي كيّف الكيف وأيّن الأين فلا كيف له ولا أين، فإذا فهمنا هذا التّنزيه كان البصر في حقّه سبحانه وتعالى عبارة عن الصّفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات، وذلك أوضح وأجلى ممّا يفهم من إدراك البصر القاصر على الظّواهر والمرئيّات.
- ومن معنى اسمه تعالى البصير هو الذي يبصر جميع الموجودات، أي ما نراه وما لا نراه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

في الأمر والنّهي

العمل بالآيتين:

- قل: اللَّهُمَّ إنّي أسألُك الثَّبات في الأمر، والعَزيمة على الرُّشد، والغنيمة من كُلّ بِرّ، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

في الأخلاق والآداب

التّخلُّقُ باسم الله تعالى البصير

- أن تستحي من الله وأن تستشعر أنّ الله تعالى يراك، وأن تتّقيه في الخلوات. فإن كنت تجتنب فعل المحظورات أمام النّاس، فلا تشرع بذلك في الخلوات، فإنّ الله يراك حيثما تكون.
- أن تستحي من الله أكثر ممّا تستحي من النّاس.
- أن تخاف من الله ولا تخاف من النّاس، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[2].
- وقد عبّر عن ذلك النّبيّ ﷺ، فقال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[3].

إذًا من التّخلّق بأسماء الله تعالى، الحياء من الله وأن تستشعر أنّ الله يراك في كلّ وقت وحين، قال تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ* وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ٣٨ - ٣٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٨.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٤٧٧٧، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿إِنَّ الله عِندَهُ عِلمُ السَّاعَة﴾.
(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٢١٨ - ٢١٩.

- والتّخلّق باسم الله **البصير** يكون بالإخلاص لله ﷻ، أي تعمل العمل تريد به وجه الله، ولا يتحقّق ذلك إلّا بنفي الرّياء والسّمعة. فكم من أولياء عارفين بالله تعالى قدّموا أعمالًا من أجمل ما يكون، من كتب وتفاسير... ولكنّ أهل زمانهم رفضوها فنبذوهم واتّهموهم، فلم تنتشر إلّا بعد وفاتهم، فكان الخير العظيم. لأنّ الله تعالى يؤدّبهم.

التوجيهات:

- احرص على ضرب الأمثال فإنّه يقرّب المعاني إلى الأذهان، ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾.

الحذر كلّ الحذر من الشّهوة الخَفِيَّة والعُجب:

قصّة الإمام أحمد بن مسكين من علماء القرن الثّالث الهجري في البصرة، يقول عن نفسه: إنّي امتحِنت بالفقر سنة تسع عشرة ومائتين، وانحسَمت مادّتي وقحط منزلي، فلم يكن عندنا شيء، ولي امرأة وطفلها، وقد طوينا على جوع يخسف بالجوف خسفًا، فجمعت نيّتي على بيع الدّار والتّحوّل عنها، فخرجت أتسبّب لبيعها فلقيني أبو نصر، فأخبرته بنيّتي لبيع الدّار فدفع إليّ رقاقتين من الخبز بينهما حلوى، وقال أطعمها أهلك. ومضيت إلى داري فلمّا كنت في الطّريق لقيتني امرأة معها صبيّ، فنظَرت إلى الرّقاقتين وقالت: يا سيّدي، هذا طفل يتيم جائع، ولا صبر له على الجوع، فأطعمه شيئًا يرحمك الله، ونظر إليّ الطفل نظرة لا أنساها، وخيّل إليّ حينئذ أنّ الجنّة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطّفل وأمّه، فدفعت ما في يدي للمرأة، وقلت لها: خذي وأطعمي ابنك. والله ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإنّ في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطّعام، فدمعت عيناها، وأشرق وجه الصّبي، ومشيت وأنا مهموم، وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدّار وإذ أنا كذلك إذ مرّ أبو نصر وكأنّه مستطار فرحًا، فقال: يا أبا محمّد، ما يجلسك ها هنا وفي دارك الخير والغنى؟! قلت: سبحان الله! ومن أين يا أبا نصر؟! قال: جاء رجل من خراسان يسأل النّاس عن أبيك أو أحد من أهله، ومعه أثقال وأحمال من الخير والأموال، فقلت: ما خبره؟ قال: إنّه تاجر من البصرة، وقد كان أبوك أودَعه مالًا من ثلاثين سنة، فأفلس وانكسر المال، ثمّ ترك البصرة إلى خراسان، فصلح أمره على التّجارة هناك، وأيسَر بعد المحنة، وأقبل بالثّراء والغنى، فعاد إلى البصرة وأراد أن يتحلّل، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في ثلاثين سنة، قال أحمد بن مسكين: حمدت الله وشكرته، وبحثت عن المرأة المحتاجة وابنها، فكفيتهما وأجرَيت عليهما رزقًا، ثمّ اتّجرت في المال، وجعلت أربه بالمعروف والصّنيعة والإحسان وهو مقبل يزداد ولا ينقص، وكأنّي قد أعجبني نفسي وسرّني أنّي قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتي، ورجوت أن أكون قد كتبت عند الله في الصّالحين، فنمت ليلة فرأيتُني في يوم القيامة، والخلق يموج بعضهم في بعض، ورأيت النّاس وقد وسعت أبدانهم، فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقة مجسّمة، حتّى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلّها مخزيات، ثمّ وضعت الموازين، جيء بي لوزن أعمالي، فجعلت سيّئاتي في كفة وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى، فطاشت السّجلات، ورجحت السّيئات، كأنّما وزنوا الجبل العظيم بلفافة من القطن، ثمّ جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة ممّا كنت أصنعه، فإذا تحت كلّ حسنه شهوة خفية من شهوات النّفس، كالرّياء والغرور وحبّ المحمدة عند النّاس، فلم يسلم لي شيء، وهلكت عن حجّتي وسمعت صوتًا: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا، وأنظر لأرى ما هذا الذي بقي،

فإذا الرّقاقتان اللّتان أحسنت بهما على المرأة وابنها، فأيقنت أنّي هالك، فلقد كنت أحسن بمائة دينار ضربة واحدة فما أغنَت عنّي، فانخذلت انخذالًا شديدًا فوضِعَت الرّقاقتان في الميزان، فإذا بكفّة الحسنات تنزل قليلًا ورجحت بعضَ الرّجحان، ثمّ وضعت دموع المرأة المسكينة، حيث بكت من أثر المعروف في نفسها، ومن إيثاري إيّاها وابنها على أهلي، وإذا بالكفّة ترجح، ولا تزال ترجح حتّى سمعت صوتًا يقول: قد نجا![1] لذا قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[2]، وفي رواية: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[3].

خاتمة: لا يبقى العمل الصّالح في ميزان الحسنات إلّا إذا كان خالصًا لله، فينجو صاحبه من عذاب الدّنيا والآخرة، فلا تُعجب بما فعلت فيجعله الله هباءً منثورًا؛ فالمال مال الله قد ابتلانا به ليرى صنيعنا فيه. قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[4].

من الأخلاق المُحمَّديّة: السّلامة من التّفاخر والتّكاثر

الاسم الإلهيّ: "العزيز"

تخيّل أنّ إنسانًا عَمِلَ على زراعَةِ بُستانٍ، فَزَرَعَ أشجارًا مُثمِرة شيئًا فشيئًا، ووردًا ونخيلًا، حتّى أصبحَ هذا البستانُ عظيمًا مليئًا بالثّمار. فلمّا كَبُرَ وأصبحَ بحاجة لهذه الثّمار، أصابَ هذا البستانَ إعصارٌ فيه نارٌ أحرقته بلحظاتٍ قليلةٍ بعد أن عَمِلَ على زراعتِه سنينَ طويلةً، وكان حينها أحوَجَ ما يكونُ إلى ثِمارِ هذا البستان.

قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾[5].

وهذا هو المثلُ الّذي ضربَهُ الله تعالى في القرآنِ الكريمِ لكلّ مَن أكثَرَ مِنَ العبادات وتفاخَرَ بِها أمامَ النّاس، حتّى إذا جاءَ الوقتُ الّذي يحتاجُ فيه إلى ثمراتِ وثوابِ هذه الأعمالِ الصّالحة يومَ القيامة، وَجَدَها قد اختفَت واحترقَت كما احترقَ هذا البستان، فيمحقُ الله أعمالَه كلّها، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[6].

في السّيرة والشّمائل

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يعتق عبيده لوجه الله:

كان سيّدنا أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه في بداية الدّعوة، يختار ضعفاء العبيد من النّساء والرّجال ثمّ يعتقهم، فقال له أبوه- أبو قحافة- وكان على الكفر: يا بنيّ إنّي أراك تشتري العبيد وتعتقها فإذا فعلت فتخيّر من العبيد الأقوياء الأشدّاء الماهرين، مَن إذا احتجت إليه يومًا عاد عليك بهذا المعروف، فأجابه أبو بكر رضي الله عنه: لا يا أبتي إنّما أعتقهم لوجه الله، فقال أبوه: نعم إنّه فعل خير وهو محمود عند العرب، ولكنّ هذا لا يمنعك أن تبتغي مع الأجر النّفع في الدّنيا، فرفض أبو بكر رفضًا قاطعًا، وقال: إنّما أبتغي الأجر والثّواب من الله، ولا أريد منهم شيئًا، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى* وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى* إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى* وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[7].

(١) انظر، مصطفى صادق الرافعي في وحي القلم، باب: السمكة، ج٢، ص١٤١-١٤٧، بتصرف.
(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي ذر، حديث رقم: ٢٦٢٦، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عدي بن حاتم، حديث رقم: ١٤١٧، كتاب: الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١١٠. (٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦ (٦) سورة الفرقان، الآية: ٢٣ (٧) سورة الليل، الآيات: ١٧- ٢١.

في السّلوك

الإشارة: تنمية الأعمال على قدر تصفية الأحوال، وتصفية الأحوال على قدر التّحقق بمقامات الإنزال، أي على قدر التّحقق بالإنزال في مقامات اليقين. فكلّ من تحقّق بالنّزول في مقامات اليقين، ورسخت قدمه فيها، كانت أعماله كلّها عظيمة، مضاعفة أضعافًا كثيرة، فتسبيحة واحدة من العارف، أو تهليلة واحدة، تعدل الوجود بأسره، ولا يزنها ميزان، وكذلك سائر أعمال العارف: كلّها عظيمة مضاعفة لأنّها بالله ومن الله وإلى الله، وما كان بالله ومن الله لا يطرقه نقص ولا يشوبه خلل، ولأجل هذا صارت أوقاتهم كلّها ليلة القدر، وأماكنهم كلّها عرفات، وأنفاسهم كلّها زكيّات، وصحبتهم كلّها نفحات، ومخالطتهم كلّها بركات.

الإشارة: في الآية تخويف للمريد أن يرجع إلى عوائده، ويلتفت إلى عوالم حسّه، فيشتغل قلبه بالدّنيا بعد أن استشرف على جنّة المعارف، تجري على قلبه أنهار العلوم، فينقُضُ العهد مع شيخه، أو يُسيء الأدب معه، ولم يتب حتّى تيبس أشجار معارفه، وتلعب به ريح الهوى، فيحترق قلبه بنار الشّهوات.

في الإعجاز العلميّ

قَالَ الله جَلَّ وعَلَا: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]

الربوة:

إنّ تحديد بيئة الرّوابي للجنّة المضروب بها المثل في الآية الكريمة التي نحن بصددها تحديد معجز، لأنّ هذه البيئة هي أفضل البيئات المعروفة لنا لنموّ أشجار الفاكهة، ولنموّ كلّ من أشجار الثّمار الأخرى كالزّيتون واللّوزيات والصّنوبريّات وغيرها وذلك لأنّ بيئة الرّوابي تتميّز بلطف مناخها، ووفرة مائها، وزيادة فرص تعرّضها لأشعة الشّمس، ولأمطار السّماء، ولرطوبة الجو، ولحركة الرّياح، ولتجدّد الهواء حولها، وكذلك فهي أنسب البيئات لنموّ الأشجار بصفة عامّة، ولنموّ أشجار الثّمار بصفة خاصّة.

فالرّوابي من أشكال سطح الأرض المستوية والمرتفعة فوق مستوى سطح البحر ارتفاعًا متوسّطًا يتراوح بين الثّلاثمائة والسّتمائة متر، لأنّها دون الجبل وفوق التّلّ، وعلى ذلك فإنّ ماء المطر لا يغرقها مهما انهمر بغزارة لاندفاعه بالجاذبيّة إلى المستويات الأقلّ في منسوبها من الرّبوة في المنطقة المحيطة بها، وذلك بعد تشبّع تربتها وصخورها بالقدر اللّازم من الماء المرطّب لها والمخزون فيها. وضبط هذا المخزون المائي يساعد النّبات على القيام بجميع أنشطته الحيويّة بكفاءة دون إغراق أو جفاف، وذلك لأنّ الجفاف يقضي على النّبات، كما أنّ الإغراق بالماء، أو الزّيادة في مخزون الصّخور والتّربة منه يؤدّي إلى تعفّن جذوره وتعطّنها وتحللها ممّا يؤدّي كذلك إلى القضاء عليه.

ويساعد انضباط كميّة المخزون المائي في تربة وصخور الرّبوة على امتداد المجموع الجذري للنّباتات بصفة عامّة، وللأشجار منها بصفة خاصّة إلى أبعاد أعمق في كلّ من التّربة والصّخور ممّا يضاعف من كميّة العناصر والمركّبات التي يتاح لجذور النّبات الوصول إليها وامتصاصها مع عصارته الغذائيّة التي تستخلصها تلك الجذور من الأرض، كما يساعد على زيادة تثبيت النّباتات بالأرض ومقاومته لشدّة هبوب الرّياح، وغيرها من المتغيّرات البيئيّة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.

ومن مميّزات بيئة الرّوابي أنّها إذا نزلت بها الأمطار هاطلة تضاعف إنتاجها، وإذا تضاءلت الرّطوبة في الجوّ من حولها إلى الرّذاذ أو النّدى فقط فإنّها تعطي ثمارها وافرة، لأنّ نباتات الرّبوة يمكنها الاستفادة بماء المطر مهما قلّ.

هذا وقد شبّهت الآية الكريمة المؤمنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، وابتغاء التّثبيت من أنفسهم مهما تكن إمكاناتهم الماديّة، بالجنّة من الأشجار المثمرة النامية على الرّبوة المرتفعة تحت ظروف بيئيّة طيّبة وفرّت لها كلّ أسباب النّماء والعطاء فأثمرت وأعطت بسخاء شديد إذا نزل عليها ماء المطر، وبسخاء أيضًا إذا قلّ عليها المطر، فعطاؤها لا يتوقف ولا ينقطع تحت مختلف الظّروف وكذلك المؤمنون الذين ينطلقون من منطلق الإيمان الجازم بأنّ الله تعالى هو الرزّاق ذو القوّة المتين فيبذلون في سبيله سواء كثرت إمكاناتهم أو قلّت، وذلك طلبًا لمرضاته، وتثبيتًا من أنفسهم لأنّ من وسائل تربية النّفس الإنسانيّة إخراج المال في سبيل الله تعالى.

وجه الإعجاز:

هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلى تفضيل زراعة أشجار الثّمار في أراضي الرّوابي بصفة عامّة، وهذه حقيقة علميّة أثبتتها التّجارب على مدى عقود متتالية، ووردها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على النّبيّ الأميّ ﷺ في أمّة كانت غالبيّتها السّاحقة من الأميّين وكانت تعيش في صحراء جرداء قاحلة، لا تعرف الجنّات ولا تعرف الأشجار المثمرة غير نخيل التّمر وبعض الأعناب إلا في أماكن محدودة جدًا منها، شاهدًا على أنّ القرآن الكريم كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

في الإعجاز العلميّ أيضًا:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)

الإعصار: هو عبارة عن عاصفة هوائيّة عنيفة تتميّز بغيمة مخروطيّة دوّارة تدور حول مساحة من الضّغط الجويّ المنخفض سرعتها لا تقلّ عن ٧٤ ميل في السّاعة. تحدث هذه العواصف العنيفة بشكل خاصّ في مناطق أمريكا الوسطى والجنوبيّة، إضافة إلى بعض مناطق الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

الإعصار النّاري (A fire whirl): يسمى بالعاميّة نار الشّيطان (fire devil) وهو ظاهرة نادرة تحدث في ظلّ ظروف معينة- اعتمادًا على درجة حرارة الهواء والتيّارات-، وهو إعصار يتكوّن من عامود من الهواء والنّار له حركة دورانيّة وتتولّد معظم الأعاصير النّاريّة من حرائق الغابات وقد لا يتجاوز مدّة هذه الأعاصير عشرات الثّواني أو الدّقائق، ولكنّها تحدث دمارًا هائلًا لكلّ ما تلاقيه في طريقها، وهو ما حصل في كاليفورنيا.

وجه الإعجاز:

وصف القرآن الكريم ظاهرة طبيعيّة نادرة تحدث في مناطق الغابات الكثيفة وهي الإعصار النّاري، ومن المعروف أنّ النّبيّ ﷺ كان يعيش في جزيرة العرب في مكان صحراوي لم يشاهد في حياته أيّ إعصار ناري، فالأعاصير النّاريّة تظهر وتتولّد من حرائق الغابات الكثيفة، حتّى سكان الغابات نادرًا من يشاهدونها فكيف بساكن الصّحراء؟

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

والقرآن الكريم يضرب المثل به على الرّغم من أنّه لم يتمّ دراسة هذه العواصف ومعرفة أسبابها إلا منذ سنوات قليلة فقط، إذ إنّ المعلومات المرتبطة بهذه الأعاصير كانت معلومات خرافيّة فقط، وكان في اعتقاد النّاس أنّ هذه العواصف النّاريّة هي عبارة عن شياطين تحرق كلّ ما يصادفها، ولذلك سمّوها لسان الشّيطان.

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

وعن شداد بن أوس ﷺ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهﷺ يَقُولُ: «إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»[2].

الآية ٢٦٧

إنفاق الطيّب من الأموال لا الخبيث

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (٢٦٧): عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ قَالَ: "نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، كُنَّا أَصْحَابَ نَخْلٍ فَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ نَخْلِهِ عَلَى قَدْرِ كَثْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالْقِنْوِ وَالْقِنْوَيْنِ فَيُعَلِّقُهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا جَاعَ أَتَى الْقِنْوَ فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ فَيَسْقُطُ مِنَ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ فَيَأْكُلُ، وَكَانَ نَاسٌ مِمَّنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْخَيْرِ يَأْتِي الرَّجُلُ بِالْقِنْوِ فِيهِ الشِّيصُ وَالْحَشَفُ وَبِالْقِنْوِ قَدِ انْكَسَرَ فَيُعَلِّقُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قَالُوا: لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ مِثْلُ مَا أَعْطَى، لَمْ يَأْخُذْهُ إِلَّا عَلَى إِغْمَاضٍ أَوْ حَيَاءٍ. قَالَ: فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي أَحَدُنَا بِصَالِحِ مَا عِنْدَهُ."[3]

عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: "أَمَرَ النَّبِيُّﷺ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ، بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِتَمْرٍ رَدِيءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّﷺ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨.
(٢) رواه أحمد في مسنده، عن شداد بن أوس، حديث رقم: ١٧١١٤، مسند: الشاميين، مسند: حديث شداد بن أوس، الحديث حسن.
(٣) رواه التّرمذيّ في سننه، عن البراء، حديث رقم: ٢٩٨٧، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة، الحديث حسن غريب صحيح.